أما البطل المقاوم لديه، فهو والد حمدان، الذي علّمه السجين كيف يزاوج بين الوعي والممارسة، وبين السياسة والبندقية.

وها هنا، مرة اخرى، يتدخل وعي الكاتب فجأً في وضوحه، ليجهز على كل ما تبقى من بساطة وتلقائية، ليتقدم بمقولة سياسية في قالبها المحدد، ويقحم الشخصيات لا ككيانات انسانية تنبض بالمشاعر، وانما كمرادفات ذهنية لافكار ومعاني سياسية تخدم رؤية الكاتب السياسية، بينما هي، في الوقت ذاته، تجهز على رؤياه الفنية. فالبطولة هنا نمطية، خادمة طيعة للفكرة المقحمة، وليست نابعة تلقائياً من كيان الشخصية.

ويعود الكاتب في «برقوق نيسان» إلى البطل المقاوم، وإلى البطولة التي تنبت فجأة، وتلقائياً، في لحظة محددة، عند أشد الناس ضعفاً. وهنا، يقف وعي الكاتب نفسه في الهوامش الموازية لسياق الحدث، فلا يخل به باقتحاماته الفكرية المباشرة.

فعلى صغرها، تزخر الرواية بنماذج البطولة، فثمة احتلال يرزح فوق الأرض، وثمة شعب يواجه الاحتلال. وفي هكذا ظروف تتفجر البطولة الكامنة في اعماق الشعب، ببساطة ودونما ادعاءات ايديولوجية.

وإذا كان «قاسم» هو النموذج وشهيد المرحلة الجديدة، فان «سعاد» و «طلال» هما من نماذج اخرى ما زالت على الأرض تواصل الطريق. فقد أزف زمن البطل الحاضر ابداً.

وفي هذا الزمن، تنبعث البطولة في أعماق الرجل الهرم «ابو القاسم»، لأن اللحظة تستنطق البطولة الكامنة فيه وتفجرها بطاقة من دم الشباب. وفي هذه الظروف أيضاً، يتوفر المناخ الذي يلغي شروط الاستنكاف، فالبطولة الكامنة في أعماق «زياد حسين»، الشيوعي القديم الذي غادر الحزب في زمن اشتدت عليه المصاعب، تعود الآن لتجد في اللحظة تفجيراتها من جديد... فتتفجر بطاقة من دم الماضي لتشارك الآخرين زمن المواجهة الحارة الذي يعيشونه.

فلم يعد منذ الآن مجالاً للبطل الغائب، لأن الزمن أصبح زمن البطل الحاضر أبداً.

■ ■ ■

المغامرة وتعدد الأشكال

تشكل كل رواية أضافها غسان كنفاني، اكتملت أو لم تكتمل، في حد ذاتها، مغامرة متفردة ومستجدة في شكلها ومضمونها المتجادلين.

ورغم بعض التشابه التقني الذي يجمع بين رواية واخرى، إلا أن ذلك لا يعني تكرار ذات الشكل، فكل رواية تضيف عناصر جديدة تميزها عن سابقتها رغم التقائهما في نقاط كثيرة. وسوف نلحظ ذلك بوضوح بين «رجال في الشمس» و «ما تبقى لكم»، كما سنلحظه بين «ام سعد» و«عائد إلى حيفا».